الشرق المثير للتساؤل

«يجب أن يكون عصرنا هو العصر الذى نسمو فيه على احتياجنا إلى دين».

(سلمان رشدى: ٦ من مارس عام ١٩٩٩ فى كلامه عن الألفية الثالثة).

- ١ -

يمكن أن نلاحظ وجود مجموعتين من الطلبة الغربيين المعتنقين للإسلام. فهناك من أدى اعتناقه الإسلام إلى تحول هائل فى شخصه، حتى إنه أصبح يعيش بين عالمين، مثل عبد الهادى كريستيان هوفمان. والبعض الآخر ممن اكتشف فى نفسه شغفًا شديدًا بكل ما هو عربى وإسلامى وشرقى، وهم يحاولون الآن تحقيق الإسلام حرفيًا واتباع أدق تفاصيل سنة الرسول ﷺ فى أنفسهم وأسلوب حياتهم، حتى فى اتباعهم الهجرة؛ إذ إنهم يهاجرون إلى العالم الإسلامى لأسباب عقائدية. وبعض هؤلاء من معتنقى الإسلام، يبالغون فى التعرب فى ملبسهم ومطعمهم ولغتهم وإيماءاتهم، حتى إن بعض المسلمين يتهمونهم بالرومانسية الشديدة فى تناولهم للإسلام، ويتهمونهم بأنهم يتجاهلون عالمية الإسلام التى لا يحدها زمان ولا مكان. بل إن محاولتهم للتعرب هذه، تزيد من تأكيد حكم مسبق يطلقه الغرب ويتبناه، مفاده أن الإسلام دين قبلى عربى، هذا بالرغم من أن العرب المسلمين يمثلون أقل من ربع المسلمين فى عالم اليوم.

- ٢ -

بادئ ذى بدء، نود أن نستمع إلى المسلم الغربى ـ الشخصية المتخيلة ـ وهو يوضح الأسباب الشخصية لرغبته فى الهجرة إلى بلد إسلامى. ما العوامل الحضارية ـ التى تكاد تزيد على عشرين عاملًا ـ والتى تجعل أحد المجتمعات الإسلامية جذابًا إلى درجة الرغبة فى الحياة هناك؟ كيف يعتقد أوروبى أن بمقدوره أن يعيد شحن بطاريته الأخلاقية والروحية فى أحد المجتمعات الإسلامية، وهناك فقط، وأن يعيش الإسلام فى هذه البقعة وحدها؟.

هيا نستمع إليه:

فى مقابل العائلة الغربية الصغيرة غير المترابطة، تجد العائلة الكبيرة الممتدة، التى تربطها أواصر وثيقة، تمثل اللبنة الأساسية الصلبة للمجتمع. ولا ينتقص من أهمية هذا أن ظاهرة العائلة الكبيرة، لا تقتصر على العالم الإسلامى فحسب.

وبالرغم من الضغوط التى تتعرض لها العائلة المسلمة بهدف تغريبها، والمتمثلة فى السياحة والأفلام الغربية المتحررة (والتى تزين الطلاق) والعولمة وما تدعو إليه، فإنها ـ أى الأسرة ـ تتكاتف وتتماسك عادة فى المجتمعات الإسلامية، حتى يشعر أفرادها بالدفء العاطفى والحسى، فتكون شكوى البعض من زيادة الاهتمام والرعاية وليس من غيابها.

ونرى حتى فى المجتمعات النفطية المسلمة، أى مجتمعات الوفرة، اجتماع أعضاء العائلة من الذكور أسبوعيًا فى منزل كبيرهم، فيما يطلق عليه مجلس العائلة.

ولقد رأيت فى البحرين ما يزيد على ٨٠ قريبًا فى مثل هذه المجالس. وطالما يتكسب أحد أفراد العائلة، فلا يجوع أحد منها.

يتم دائمًا التفكير فى الشيوخ والعجزة فى العائلة، كما يتم أخذ الأعداد الغفيرة من الأطفال فى الحسبان فى أىّ أمر من أمور العائلة أو مصالحها.

فحتى فى تركيا نفسها، ما كان من الممكن أن تجد قبل عشر سنوات دارًا للمسنين. كما يرفض ملك المغرب ـ بشدة ـ إلى الآن إقامة دار للمسنين؛ لأنه يرى فى ذلك مؤشرًا لانهيار الضمانة الاجتماعية التى تؤمنها العائلة للفرد.

هناك حقيقة ثابتة هى: تمثل العائلة فى العالم الإسلامى ـ سواء ثرية أو فقيرة ـ النسيج الاجتماعى الأساسى. وهذه هى المكانة التى كانت الأسرة فى الغرب تحتلها يومًا ما قبل أن تتولى الدولة عن الأسرة الأعباء التالية: تأمين المرضى، والعاطلين عن العمل، وأصحاب المعاشات، ومن تعرض لحادثة، وكلّ من يحتاج إلى رعاية.

أما فى الأسرة المسلمة، فيعيش الجميع معًا، يأكلون سويًا، يصلون معًا، يحتفلون مجتمعين، يحزنون معًا، ويعايش بعضهم البعض حتى فى الوفاة، ويتم كلّ هذا دون ممارسة ضغوط من أىّ فرد من أفراد العائلة؛ وتشجع العائلة أبنائها على التفوق والتميز، فالعائلة مجتمعة تساند المواهب الفردية، وهناك أمثلة واضحة من تضامن العائلة لإيفاد أحد أفرادها الموهوبين لاستكمال دراسته فى الخارج.

ولا تغفل طبيعة العائلة المذكورة عن الضيافة ومظاهرها، خاصة أن الإسلام يدعو إلى إيواء الضيف وإكرامه لمدة ثلاثة أيام بحد أدنى(*)، وتلبية لتلك الدعوة، نشأت أساليب

(*) ففى الحديث: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته». قالوا: وما جائزته يا رسول الله؟ قال: «يومه وليلته، والضيافة ثلاثة أيام، وما كان وراء ذلك فهو صدقة». البخارى فى باب إكرام الضيف: حديث [٦١٣٥] وأبو داود فى باب ما جاء فى الضيافة: حديث ٣٧٥٠، وأبو داود [٣٧٤٨].

ومظاهر ضيافة لا يستطيع الغربى أن يفهمها، خاصة أنه مرتبط ارتباطًا شديدًا بخطط منزلية ثابتة. (كان عليَّ لفرط كرم الضيافة أن أثير انتباه الزائرين الألمان الرسميين إلى الجزائر والمغرب فى أثناء شغلى لمنصب السفير فى هذين البلدين، إلى عدم إبداء الإعجاب الشديد، وبطريقة ألمانية، فيما تقع عليه أعينهم عند أحد مضيفيهم. أما من لم يستمع إلى هذا الرأى، فكان يجد ما أبدى إعجابه به ـ مثل كتاب قيم، لوحة جميلة أو تحفة ثمينة ـ فى حقائبه).

عادة ما يقوم المسلم بإحضار أكثر مما يطلبه منه أحد معارفه. فإذا كان المطلوب شراء أسطوانة موسيقية واحدة فإنك تتلقى اثنتين. إذا ما اصطحب أحد الأفراد شخصًا إلى السوق لشراء طعام أو شراب لمنزله، فلن يكون مستغربًا أن يهدى شيئًا لمنزل صاحبه.

يمثل الإحساس بالعائلة وكرم الضيافة الخلفية للدفء الإنسانى والاستعداد التام لمساعدة المحتاج، التى تشع من المجتمعات الإسلامية: شعور الإخاء الذى يسود بين أبناء الأمة.

ووصى الرسول ﷺ بالجار وقال إن جبريل أكثر عليه في ذلك حتى ظن أنه سيأتيه الأمر بتوريث الجار، وأمرت آيات وأحاديث كثيرة بالأخوة وحب الناس، فهم جميعًا أبناء آدم.

لذلك يعايش الأوروبى هذه الطيبة والتسامح الذى يتعامل به المسلمون فى المناطق الإسلامية كتجربة خاصة تجلب له سعادة غامرة، وينتابه إحساس غامر بالدفء الإنسانى وشعور الناس بعضهم ببعض. وهذه الحقيقة تُعَدُّ أحد الأسباب التى تدفع بالكثير من الفلبينيين الكاثوليك ممن يعملون بدول الخليج العربى إلى اعتناق الإسلام.

فالمسلمون ـ وإن لم يسبق لهم معرفة بعضهم بعضًا ـ يتعانقون عند السلام، ويتحدثون بألفة شديدة دون لهجة خطاب رسمية، من الممكن أن نتوقعها من جماعة متقوقعة على نفسها، وليس من جماعة دينية يفوق تعدادها مليار نسمة. ولا نستطيع أن نغفل حقيقة أن الاضطهاد الذى يتعرض له المسلم فى بعض المناطق غير الإسلامية، تدفعه إلى الاحتماء بالمسلمين الموجودين معه، مما يؤدى بالتالى إلى زيادة ارتباط المسلمين بعضهم ببعض. لكن إذا بادر المسلم فسأل مسلمًا آخر شيئًا، ففى الغالب يكون هذا الشيء هو الدعاء له.

ويتجلى شعور المسلمين بالإخاء فى حبهم لبذل المال بعضهم لبعض، هذه الظاهرة التى تسجل فى الولايات المتحدة الأمريكية أرقامًا قياسية. فبجانب أموال الزكاة ـ التى تُعَدّ أحد أركان الإسلام الخمسة ـ هناك الكثير من الصدقات التى يدفعها المسلمون فى أمريكا لأعمال الرعاية الاجتماعية. فالمسلم يعلم أنه لا يجوز له أداء مناسك الحج ـ وهو أحد أركان الإسلام الخمسة ـ إذا كان جاره فى حاجة إلى المال. وتبلغ حصيلة أىِّ حفل عشاء يضم من ٨٠ - ١٢٠

مدعوًا لجمع تبرعات لصالح شأن من شئون الإسلام من ١٠٠ ألف إلى ٥٠٠ ألف دولار فى بعض الأحيان. وهناك فى الولايات المتحدة الأمريكية أطباء مسلمون ألزموا أنفسهم منذ أن كانوا طلبة طب ـ بدفع ١٠ ٪ من دخلهم لصالح شأن من شئون الإسلام، وهذا مدى الحياة.

لكن حب بذل المال لا يفسِّر وحده ظاهرة بناء المساجد المنتشرة فى العالم الإسلامى. ولكن يضاف إليه دافع آخر وهو قول الرسول ﷺ: «من بنى مسجدًا يبتغى به وجه الله بنى الله له مثله فى الجنة»(*). لذلك تم فى تركيا فى العقد الأخير بناء مسجد كل ست ساعات بالجهود الذاتية.

يمثل هذا التضامن والشعور بالانتماء الذى يسود أمة المسلمين والذى يسمو فوق أى اعتبارات عرقية، حقيقة سياسية يمكن إبرازها فى أى وقت.

هذا، وإن لم يستطع مسلم ـ يأخذ الأمور بشكل جدى ويتعامل معها بدقة ـ أن يزعم أن الإسلام نجح فى القضاء نهائيًا على أى تفرقة عرقية أو أحكام مسبقة يمارسها عرق ضد عرق آخر (فهناك الكثير من الأدلة والشواهد المريرة، ليس أقلها ما يحدث فى موريتانيا وشبه الجزيرة العربية) فإنه يستطيع أن يقول ـ وهو لا يتجنى على الحقيقة ـ إنك لن تجد دينًا نجح فى تقليص العنصرية والتغلب عليها بالدرجة التى حققها الإسلام.

وتؤدى فريضة الحج وظيفة هائلة فى هذا الشأن؛ حيث تتلاشى فيها كل الفوارق بما فيها الطبقية والعرقية، فيتحول الحج إلى مهرجان لا تُعتبر فيه ألوان البشر، وكأن الناظر مصاب بعمى ألوان، فلا يفرق بين لون وآخر. ولقد أدت تجربة حج واحدة لأن يدرك (مالكولم إكس) ـ رئيس جماعة «أمة الإسلام ـ Nation of Islam» الذى عرف عنه معاداته للسامية وللبيض ـ أن جماعته «أمة الإسلام» الموغلة فى العنصرية، تسير على الدرب الخاطئ. ومنذ تلك اللحظة، أصبح مسلمًا سنيًا حقيقيًا، ودفع حياته ثمنًا لهذا التحول.

ومنذ تلك الواقعة، ظهرت أعداد كبيرة فى المساجد السوداء، تحاول إصلاح مسارها والعودة إلى الطريق القويم للشريعة الإسلامية.

نستطيع أن نقول إن الإسلام فى مجمله، يتسم بدرجة عالية من المساواة بين البشر، ذلك أن القرآن ذكر أن المرء بتقواه وعمله وليس بغناه ونفوذه، ولا بحسبه ونسبه، ولا بجماله وشهرته(**).

(*) البخارى فى باب من بنى لله مسجدًا: حديث ٤٥٠.

(**) ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وجاء فى الحديث «فاظفر بذات الدين».

وتتجسد فكرة العمل الصالح والتقوى، فى أفضلية المرء إذا ما غاب الإمام الرسمى للجامع عن صلاة ما، فسرعان ما يتم اختيار أقرأ المصلين وأعلمهم بشئون دينهم، ولا يعتد بجنس أو عرق أو مال أو جاه فى هذا الاختيار(*).

ولا ينفى هذا وجود مظاهر قليلة للملك وإمارة دنيوية فى العالم الإسلامى متمثلة فى الشيوخ والملوك وأمرائهم الكثيرين، ولكنك لن تجد بلاطًا يذكرك ببلاط بيزنطة إلا فى المغرب.

ومن التجارب المؤثرة أن تشاهد بعض البدو فى السعودية بملابسهم البالية وهم يحاورون ولى العهد الأمير عبد الله فى مجلسه الأسبوعى، ويواجهونه برأيهم، بل ويلوحون بشدة بأصابعهم فى وجهه.

وتُماثل فكرة المساواة عند البدو والمنتشرة بين المسلمين فكرة أخرى، وهى الاحترام خاصة لمن هم أكبر سنًا. هذه الفضيلة التى يُنَفِّر الغرب عنها بصفتها رذيلة. فالمسلم يتعلم منذ نعومة أظافره احترام مكانة الأب والأم، واحترام المعلم، وكلّ من هو أكبر منه سنًا؛ حتى إن الأخ الأكبر (بالتركية أبيه) والأخت الكبرى (بالتركيه أبله) يتمتعان باحترام الإخوة الأصغر سنًا. هذا المنهج فى التعامل باحترام مع الأكبر سنًا، من الممكن أن يؤدى فى حالات فردية إلى أن يسبق قيمة العمل الحقيقى للإنسان، أو بمعنى آخر أن يتفوق العُمْر على الكفاءة الحقيقية للإنسان، خصوصًا أنه ليس من الضرورى أن يتواكب العُمْر مع الحكمة. كما أن بالمدارس العديد من المعلمين التافهين.

ولكن فى آخر الأمر، يضفى استعداد الناس لاحترام الكبار والنساء سمة إنسانية على المجتمع الإسلامى، فكثيرًا ما نفتقد ـ فى ألمانيا مثلًا ـ هذا الاحترام، فنرى فى السيارة العامة أحد التلاميذ يجلس فاتحًا فاه وهو يلوك العلكة، وامرأة حاملًا لا تقوى على الوقوف، ولا يفكر فى أن يقوم ليجلسها مكانه.

هناك سلوك حميد آخر مرتبط بهذا الاحترام، ينتشر فى العالم الإسلامى، ألا وهو احترام الخصوصية، والذى تلحظه بدقة فى مدينة مثل فاس، تلك المدينة ذات المبانى الشديدة الالتصاق بعضها ببعض. فى هذه المدينة، يستطيع كلُّ إنسان أن يرى من سطح بيته بيوت الآخرين، بل أن ينظر كلُّ إنسان داخل نافذة الآخرين، ولكن سرعان ما تتراءى للمرء حقيقة أن كل إنسان يمنع نفسه عن النظر إلى خصوصيات الآخرين، ويحمى نفسه من أنظار الآخرين. إننى أرى

(*) ففى الحديث: «يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانوا فى القراءة سواء فأعلمهم بالسنة...». مسلم فى (باب من أحق بالإمامة: حديث ١٥٦٤)، وأبو داود فى (باب من أحق بالإمامة: حديث ٥٨٢).

عامة البيوت الإسلامية مبنية وفق معايير هندسية معينة؛ لتوفر الحماية والخصوصية لأصحاب هذه البيوت.

وهناك ظاهرة مرتبطة بفكرة نفى الإسلام لأىّ هيراركية، وإن لم يبد هذا لأول وهلة: ظاهرة دور الخطاب الشفوى فى الحضارة الإسلامية.

فأول كلمة تلقاها محمد من الوحى هى اقرأ. اقرأ هذه لا تتضمن فعل القراءة لنفسه فحسب، بل أيضًا التلاوة على الغير، أى وجوب توصيلها للغير، ومنذ تلك اللحظة غدت تلاوة القرآن فنًّا رفيعًا، وأصبح حفظ القرآن مهارة تحظى بتقدير واحترام بالغين، وهى المهارة التى يحرص مئات الآلاف حتى اليوم على إتقانها[1].

ولكن بالرغم من هذا، فإنه من قبيل الفكر المضلل أن نتفق مع «هانز كونج» فى رأيه؛ حيث يدعى أن تجسد الله فى يسوع (أى التجسيد المادى)، يقابله فى القرآن تجسد الله فى الكلمة[2]؛ لأنك لن تجد مسلمًا واحدًا، يقدس وجود الله المادى فى القرآن المكتوب، ولكنه يحترم كلمة الله عند تلاوته.

حديثنا هذا لا يدل بأىّ شكل من الأشكال على التقليل من دور كلّ ما هو مكتوب فى العلوم الإسلامية. وكيف يكون هذا، ونحن نعلم قيمة أعمال علماء الإسلام المكتوبة. لقد تم تدوين القرآن فى صحف متفرقة فى أثناء حياة الرسول، وما لبث بعد فترة قصيرة أن ظهرت كتب مطوَّلة يجمع فيها العلماء حديث الرسول، كما ظهرت تفاسير كثيرة للقرآن الكريم. وكذلك ظهرت روايات لسيرة الرسول، وعلوم التأريخ، وعلوم الفقه[3] وعلوم المعاجم وعلوم أخرى كالنحو وغيرها من العلوم. كانت علوم اللغة والبلاغة هذه منذ بدايتها وفى مراحل تطورها المختلفة حريصة دائمًا على أن تكون النصوص المقدسة وما يتعلق بها من نصوص كالتفسير فى متناول كل إنسان بشكل مباشر، حتى الأمى، على عكس احتكار الكنيسة النصوص المقدسة(*).

---

(١) رأيت من خلال زيارتى لمدرسة تحفيظ القرآن فى واد مدنى (تبعد ٢٠٠ كم عن الخرطوم جنوبًا، وتقع بين النيلين الأبيض والأزرق) قمت بها منذ فترة قصيرة، أنهم يقومون بالتدريس هنا كما كان يحدث من فجر الإسلام. لكن إذا ما تمكن مسيحى من حفظ العهد الجديد، فإن هذا يكون أمرًا عجيبًا يصور على أنه حدث استثنائى ومدوٍّ، كما حدث للإنجليزى دافيد باثهورست David Bathurst، الذى حفظ العهد الجديد (٣٠/ ٦/ ١٩٩٨، FAZ).

(٢) هانز كونج: يعلمنا الإسلام نهاية الفصل بين الدين والسياسة، Die Welt رقم ٥٥، برلين ٦/ ٣/ ١٩٨٩، ص ١٣.

(٣) تُعَدّ «الرسالة» للإمام الشافعى عملًا يتسم بالأهمية الشديدة، كذلك كتاب ابن رشد: «بداية المجتهد» يُعَدّ نموذجًا إلى يومنا هذا.

(*) حرمت الكنيسة على الناس اقتناء الكتاب المقدس، وعاقبت كل من تجد لديه نسخة منه حتى قيام ثورة مارتن لوثر على الكنيسة الكاثوليكية فى مطلع القرن السادس عشر، وصيحته المدوية: «البابا عدو المسيح» ـ (المترجم).

لم تكن علوم الدين الإسلامى ولا نصوصه علمًا سريًّا فى أى وقت من الأوقات. وكلُّ ما سبق ذكره يؤكد قيمة الشفاهية فى الإسلام، ويوضح ما يتمتع به الإسلام من صلابة وقدرة على مقاومة المتربصين به. فلم يستطع السوفييت القضاء على الإسلام فى آسيا الوسطى؛ لأن اعتقال علماء الإسلام وحرق المكتبات وحده لا يفرغ الإسلام من قوته، فهناك عنصر الشفاهية كوسيلة تعليم وإعلام.

يرصد صديقنا المسلم المغرم بالشرق عدة عناصر أخرى فى أسلوب حياة المسلمين - وإن بدت أقل أهمية مما سبق - ويبدى إعجابه بها. من ضمن هذه العناصر التى يذكرها بإعجاب شديد، الصبر الذى يتسم به المسلم، وهذه الصحوة التى يلمسها فى كلِّ مكان، وهو يعنى بها قدرة المسلم على تجنب المخدرات والخمور، حتى وإن وجدت.

لن يضطر رجل فى مدن الإسلام أن يأخذ حذره من سائق مخمور ولا تضطر امرأة إلى أن تحتاط لنفسها خوفًا من مخمور يتهجم عليها. لن تستمع إلى جلبة وصخب يحدثهما مخمور، سواء ليلًا فى شارع ما، أو على منضدة مجاورة لك فى مطعم قصدته.

المسلم الحق عادة ما يكون رشيقًا؛ لأنه اتباعًا للسنة لا يجوز للمرء أن يأكل حتى الامتلاء، بينما نجد أن مشكلة السمنة هى إحدى المشكلات المؤرقة فى الولايات المتحدة؛ حيث تنتشر ظاهرة السمنة بشكل مفرط، لدرجة أنها تكاد تكون مشكلة قومية، ولذلك تجد منذ اللحظة التى تطأ فيها قدماك أرض أحد مطارات الولايات المتحدة أناسًا يعانون من مشكلة السمنة من مختلف الأعمار.

ومن قبيل التفسير السطحى لدرجة الإخلال بمضمون المشكلة، أن نُرجع أسباب السمنة المفرطة فى الغرب إلى الشراهة فى تناول الأطعمة، بينما نعلل نحافة المسلم بصومه شهر رمضان. ولكن من المؤكد بما لا يدع مجالًا للشك أن مشكلتى السمنة والنحافة لا يمكن تفسيرهما فقط فى ضوء الأطعمة السريعة ذات السعرات الحرارية المرتفعة، أو اللحوم التى تحتوى على هرمونات تورث السمنة، ولكنهما يفسَّران كذلك فى ضوء الحالة النفسية للمرء؛ فلا عجب أن نتحدث عن «شحم الهموم»، مما يعيدنا إلى الحديث عن أهمية الإيمان ودوره فى حياة الأفراد والمحافظة عليها.

هناك أيضًا ـ بجانب عدم الإسراف فى الملذات(*) ـ صورة من صور الهدوء والاسترخاء فى البيئة الإسلامية الحقيقية. ويجنح البعض إلى تسويغ هذا الهدوء فى ضوء المناخ الحار، ولكنك تصادف ظاهرة الهدوء هذه فى الأقاليم الباردة كذلك. ويحلو للبعض الآخر تفسير هذا الاسترخاء بكونه إرهاقًا متوقعًا من أناس يستيقظون مبكرًا لأداء صلاة الفجر، ولكن فى حقيقة الأمر، يعود السبب فى هذا الاسترخاء إلى تهذيب الضغوط الحياتية المعتادة، والذى لا يمكن تفسيره ـ أى هذا التهذيب ـ إلا من رؤية دينية للدنيا وشئونها.

هناك ـ بطبيعة الحال ـ أطباء نفسيون فى العالم الإسلامى ومرضى فى حاجة إلى هؤلاء الأطباء. لكن إيمان الناس ويقينهم الثابت بالقضاء والقدر، وثقتهم بهداية الله وحسابه العادل، واعتقادهم وأملهم فى الآخرة يحفظ غالبية المسلمين من إحساس يبدو سمة لما يعرف بمرحلة ما بعد الحداثة بما يتضمنه من ضياع وجودى وفراغ كونى واغتراب مأساوى. كما يحميهم من الشعور بالاكتئاب بسبب التقدم فى العمر، كل هذه الأمراض التى طالما حولت الكثير من الأطباء النفسيين إلى أثرياء.

فيقين المسلم وإيمانه العميق المكلل بالتقوى، يؤدى إلى تضاؤل أهمية أشياء كثيرة، تبدو لغير المؤمنين ذات أهمية عظمى.

والأمر المهم جدًّا، أنك تسمع الأذان خمس مرات يوميًّا فى العالم الإسلامى مذكرًا إياك أن الله هو مانح الحياة بكل ما فيها، فهو أكبر.

ومن الوظائف التى يفترض أن يؤديها الأذان، تنظيم حياة المسلم. ولكن يبدو أن هذا لا يتم إلا فى البلدان التى تُغلق فيها المحلات فى مواقيت الصلاة دون غيرها من البلدان التى لا تلتزم بهذا الأمر. تسهل الدولة برفعها للأذان على المسلم تذكر مواقيت الصلاة وأدائها، كذلك توفر له شراء اللحم الحلال وهو مغمض العينين من أى جزار؛ لأنه على ثقة بأن الذبيحة قد ذبحت حسب الشريعة الإسلامية. هذا التيسير لا يلاقيه المرء فى العالم الغربى؛ حيث يقضى وقتًا طويلًا فى قراءة أغلفة منتجات اللحوم ليتأكد من خلوها من لحم الخنزير.

ويتسم المسلمون بهدوء شديد فيما يختص بالوقت والزمن، حتى يُخيل إليك أنك تتحدث عن شعور مختلف بالزمن، شعور شرقى بالزمن إن جاز التعبير.

(*) ففى الحديث: «ما ملأ ابن آدم وعاءً شرًّا من بطنه. بحسب ابن آدم أكَلَاتٌ يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه». [صحيح] الترمذى فى (باب ما جاء فى كثرة الأكل: حديث ٢٣٨٥).

ومن المنطقى أن يتعذر وجود وقت أينما وحينما يساوى الوقت المال (Time is money). فحركة العالم تسرع خطاها فى العالم الغربى بسرعة حركة دوران المال. ويؤدى الإنترنت دورًا أساسيًّا فى هذا الصدد؛ لأنه ينتج الاتصال فيما يسمى Real Time أى الاتصال فى نفس الوقت. ولذلك، فمن المحتمل توافر الوقت حيث لا تتم مساواته بالمال. ومن النتائج الإيجابية للموقف الشرقى من الوقت هو انتفاء القلق الدائم بأنك ستصل متأخرًا عن موعدك، هذا الشعور الذى يلح باستمرار على الغربى.

فالمسلم لا يحول الوقت إلى طاغية يحكمه، ولا يحدد مواعيد يرزح تحت وطأة اللحاق بها؛ فهو مثلًا لا يحدد موعدًا كالساعة ١٦:٢٠، بل يقول فى الفترة ما بين صلاة العصر وصلاة المغرب. فالكل يعلم أن الأولوية للصلاة.

تضفى الصحوة والهدوء المذكوران سابقًا وقارًا، يزيد من هذا الوقار الخطوة التى يحكمها الجلباب.

إنَّ أول ما يخطر على بال صديقنا المسلم هذا عند ذكر الوقار المرأة المسلمة؛ لأنها اتباعًا للقرآن والسنة ترتدى ملابس محتشمة تقيها شر الدخول فى منافسة للعرى مع بقية النساء، وخاصة مع المرأة الغربية، ولذلك فقد نجحت المسلمة فى العالم الإسلامى فى أن تحفظ نفسها ولا تقع فريسة للاستغلال كسلعة جنسية فى الدعاية أو فى مكان العمل.

لقد اتخذت حركة تحرير المرأة فى الغرب حماية المرأة والدفاع عن حقوقها هدفًا رئيسيًّا لها، ولكن المرأة المسلمة تفوقت فيما حققته من نجاح على مثيلتها الغربية، وهذا ما يدفع النساء فى الغرب إلى اعتناق الإسلام، حتى إن عدد النساء اللاتى يعتنقن الإسلام فى الغرب يفوق عدد الرجال، رغم كلِّ الدعاية المضادة.

ويتغاضى الغرب عن حقيقة دور المرأة الرئيسى وأهميتها فى البيت المسلم؛ خاصة كأم، فهى تمارس سلطة هائلة على أبنائها، أكثر مما يبدو أو يتوقع أحد فى الغرب.

تختم الشخصية الغربية المتخيلة لصديقنا المسلم هذا، سرد الصفات التى تجذبه للحياة فى المجتمع الإسلامى والتى أخذ فى تبنيها بذكر حقيقة ثابتة، وهى شعوره بالارتياح لعيشه فى بيئة تقدر الله حق قدره، وتنزله المنزلة اللائقة بذاته سبحانه، وهذا يتم اليوم فى العالم الإسلامى أكثر منه فى الغرب.

حين يدير السائق محرك السيارة، فإنه يبادر بذكر الله قائلًا: «بسم الله». ونفس هذا الفعل يأتيه كلٌّ من المحاضر وقائد الطائرة عند تحيته لضيوف رحلته، والأب عندما يهم بالأكل

ويمسك بالملعقة فى يده. ولن نجد محاضرة لا يلقيها قائلها إلا ويستهلها بحمد الله والصلاة والسلام على رسوله والسلام لمستمعيه.

ويُعَد يوم مولد الرسول عيدًا رسميًّا فى الدول الإسلامية.

ويشير صديقنا المسلم الغربى الذى تتملكه رغبة عارمة فى الهجرة إلى عالم إسلامى والحياة فيه، إلى أن الإسلام بالرغم من الاتجاهات ذات القوة المركزية الجاذبة للإله الواحد، فإنه يتمتع كذلك باتجاهات ذات قوة مركزية طاردة تذهب به إلى التعددية. فلم يلبس خليفة ما يومًا ثوب البابا المعصوم، ولم يدَّع أحد فى الإسلام ـ بما فى ذلك محمد ﷺ ذاته ـ الكمال أو أنه منزه عن الخطأ(*).

يقبل فقهاء الإسلام سبعة مذاهب فقهية، بالرغم من وجود تنافس موضوعى بينها وفى ظل اختلافات فى التفاصيل(٤).

كما أثرت التعددية علومًا كعلوم الدين والفلسفة والتصوف، مما كان له أثره فى نشأة مدارس فلسفية كالمعتزلة والأشاعرة، وطرق صوفية شديدة التنوع(٥).

أخيرًا يقف كل مسلم أمام الله بغير وساطة أو تدخل لأى شخص مقدس أو أسرار دينية. وهكذا يصبح المسلمون ديمقراطيين أساسيين لا يخضعون لنفوذ أى رجل دين، ومدفوعين بتعاليم القرآن إلى إدارة كلِّ شئون الجماعة عن طريق التشاور بين أولى الأمر والمحكومين بشكل ديمقراطى(٦).

وهنا تنتهى مرافعة المسلم الغربى المتخيل، الراغب فى الهجرة إلى الشرق.

(*) شيدت البابارية لها مرتبة عالية تصل لاعتبار البابا نائب المسيح، أو وكيل المسيح، وأحيانا حينما تتضخم شخصية البابا وتسمح الظروف يصبح البابا هو تجسيد المسيح، والمسيح فى العقيدة المسيحية هو الله. وبالطبع البابا معصوم، وهو يحلل ويحرم، وهو يغفر الذنب، وهو يدخل من يرى من رعيته ملكوت السماء، ويحرم ذلك على من يرى من رعيته، فيلقى به إلى جهنم ـ (المترجم).

(٤) هى المذاهب السنية الأربعة، وبجانبها هناك المذاهب الشيعية الثلاثة. تُعَدّ الزيدية أقرب المذاهب الشيعية إلى المذاهب السنية، وهو المذهب الذى أسسه زيد بن على، وينتشر فى اليمن، ومذهب الإثنى عشرية أو المذهب الجعفرى، وهو أكثر مذاهب الشيعة عددًا، ويعيش أتباعه فى الشام والعراق والخليج وإيران ووسط آسيا، بعد ذلك هناك الشيعة الإسماعيلية، وأكثرهم فى وسط آسيا، وبجانب ذلك هناك المذهب الإباضى، وهو فى سلطنة عمان، وعدد من أتباعه فى الجزائر وليبيا، وأخيرًا المذهب الظاهرى والذى كاد يندثر.

(٥) تقدم آن مارى شيمل عرضًا وافيًا ودقيقًا للطرق الصوفية الكثيرة على تنوعها.

(٦) أشير هنا إلى مبدأ الشورى الذى ذكرته الآية ١٥٩ من سورة آل عمران، والآية ٣٨ من سورة الشورى، كأساس لحياة شورى إسلامية. والذى يسميه الشيخ محفوظ نحناح الجزائرى «شورى قرآنية».

- ٣ -

نتوجه الآن بسؤالنا عن الإسلام والحياة فى العالم الإسلامى إلى الشخصية المتخيلة الثانية، شخصية الغربى المعتنق للإسلام، ولكنه ـ على النقيض من زميله ـ يرصد سلبيات ونقائص عالم الشرق.

نحن أمام شخص مثله كمثل محمد أسد، الذى يحمد الله ـ وهو فى الخامسة والثمانين من عمره ـ على أنه اعتنق الإسلام قبل أن يتعرف على العالم الإسلامى[٧]. لأنه لم يكن ليستطيع أن يتجنب رؤية الواقع الذى يلقى بظلاله على النظرية الإسلامية ذاتها والمشروع الإسلامى، ولا أن يركز اهتمامه أساسًا على النظرية الإسلامية ذاتها وليس تطبيقها من قبل البشر فى الفترة الحالية من تاريخ الإنسانية والمسلمين.

صديقنا هذا ينظر بسلبية شديدة إلى معظم ما رآه زميله إيجابيًّا فى العالم الإسلامى، ويوجه نقده الشديد إلى غالبية العناصر التى امتدحها زميله.

العالم الإسلامى جزء من العالم النامى، الذى لا يتوافر فيه إلا أربعة أشياء فقط: الشمس، والصحراء، والأطفال، والوقت. ولن تجد لهذا الوضع ـ الذى يحجبه فقط استيراد التكنولوچيا من الخارج ـ عذرًا أو تسويغًا تاريخيًّا أو جغرافيًّا.

يتسم مفهوم العائلة عند المسلمين بازدواجية شديدة، حتى إنك تستطيع أن تراه عاملًا أساسيًّا للفساد الذى يسرى فى العالم الإسلامى حتى النخاع. ففى العالم الإسلامى، تُقسم المناصب المهمة بناءً على علاقات القرابة والمحسوبية، ومن ثم يحتل كثيرًا من المناصب المهمة والحساسة أناس غير مؤهلين تنقصهم الكفاءة، وبذلك تحرم هذه الدول من كفاءات تحتاجها فى تنميتها. بل إن هذا الأمر يعوق عوامل وأسباب نموها. يرى العامة من مسلمى الشرق أنفسهم ملتزمين أخلاقيًّا بحماية علاقات القرابة، حتى إنه لا ينتابهم أىُّ شعور بالذنب تجاه من يظلمونهم لحساب قرابتهم. لم يكن أحد ليجرؤ على أن يأتى مثل هذا السلوك فى الغرب وإلا وجد نفسه مهددًا بدخول السجن إن لم يدخله فعلًا.

أما بالنسبة للدفء الذى تتسم به العلاقات الإنسانية بين أفراد الأمة، فهو حقيقة ولكنها

(٧) كذلك قال لى أسد البالغ من العمر آنذاك ٨٥ عامًا فى لشبونه عام ١٩٨٥.

حقيقة منقوصة وغير كاملة. فلا يمكن، بناءً على ما يحدث على أرض الواقع، أن ندعى أن العمالة الأجنبية التى يبلغ تعدادها الملايين فى شبه الجزيرة العربية، تعامل معاملة الأخوة فى الإسلام، ويعضد هذا الرأى ـ الذى ينكر معاملتهم معاملة الأخوة ـ حرمانهم من حقهم فى اصطحاب عائلاتهم، وحق الإقامة الدائم، وعدم صرف معاشاتهم المستحقة بعد انقضاء مدة الخدمة. فهل يجوز ترحيل الباحثين عن العمل من فقراء المسلمين (من الباكستانيين والمصريين والفلسطينيين والمغاربة) ـ حتى وإن دخلوا البلاد بطرق غير شرعية ـ دون إجراءات قانونية، وفى ظل ظروف غير إنسانية؟!

أما بالنسبة للدول الفقيرة التى يبحث مواطنوها عن فرص عمل فى دول الخليج الغنية، فستقع عيناك فيها على مظاهر رفاهية لن تجد لها مثيلًا فى دول غنية كثيرة. فعلى سبيل المثال، فى المغرب، ترى بعض نساء المغرب وقد ارتدين الملابس الفاخرة والمجوهرات الثمينة التى لا تجد لها مثيلًا بين سيدات السلك الدبلوماسى فى الغرب ـ وغيره من دول ـ أكثر غنى.

قد يبدو هذا القول لاذعًا وشديد السخرية، ولكنه قريب جدًّا من الواقع. إن ملاحظة حياة من كانوا بدوًا سابقًا فى دول الخليج تعطيك الانطباع بأن أثمن ما فى حياتهم وأغلاه، ليس الإنسان رجلًا كان أو امرأة، وإنما هو القصور والأملاك، بل والحيوانات الأصيلة كالخيول وصقور الصيد والنوق الهُجُن. فالاهتمام بصقور الصيد مثلًا، الذى يصل إلى حد استقدام إخصائيين نفسيين لهذه الصقور التى يبلغ ثمن الواحد منها مئات الآلاف من الدولارات، لا يثير استغراب مسلمى الغرب وحدهم.

أما محك الاختبار الحقيقى لشعور الإخاء الذى طالما تغنى به المسلمون، فهو القضاء على الفجوة الرهيبة بين فقراء الأمة وأغنيائها.

لا يمكننا بأى حال من الأحوال أن ننكر أن هناك الكثيرين من حكام بلاد البترول وغيرهم من أغنياء المسلمين، يبذلون الكثير من الأموال ـ بشكل فردى وشخصى ـ لشئون الإسلام كبناء المساجد والمراكز الأكاديمية، وأود أن أؤكد أن توزيع المال والصدقة على مستحقيها أبعد ما يكون عن الأمر اليسير، وعلينا أن نأخذ كذلك فى الحسبان أن المطالب الأساسية للمعيشة كالماء والكهرباء يحصل عليها المواطن بلا مقابل، أى بالمجان فى بلاد البترول.

ولكن بالتوازى مع كلِّ هذا، يُصعق المسلم الغربى بمظاهر ثراء ورفاهية يعجز عقله

عن استيعابها، فلا تتماشى هذه المظاهر مع الأخوة المرجوة، ومع الاحترام الشديد لرغبة المسلم فى بذل الأموال لوجه الله، فإننى أرى ألا ينفقوا أموالهم فى بناء المزيد من الجوامع، بل فى إقامة دور الحضانة والمدارس الإسلامية، وتكوين جمعيات تهدف إلى مساعدة المسلمين.

وبما أننا تطرقنا إلى حديث المال، فإننا لا نستطيع أن نتجاهل حقيقة أن الدول الإسلامية تودع أموالها بالغرب وغيره فى ظل نظام يتعامل بالفائدة، بالرغم من نهى القرآن عن هذا التعامل، وبغير تقديم حلول مبتكرة للاستثمارات الخارجية. لقد حدد الإسلام طريقة الربح الحلال لرأس المال، الذى يحتمل الربح والخسارة معًا. ولهذه الأسس فوائدها الاقتصادية وليست الأخلاقية فحسب؛ لأنها تشحذ من مخيلة صاحب العمل واستعداده للمغامرة، وهى إحدى الدعامات الأساسية للبناء الرأسمالى.

المحزن فى الأمر أننا فى عامنا ١٤٢٠ للهجرة، ما زال ينقصنا نظام إسلامى اقتصادى(*).

لا نستطيع أن ننفى عن الإسلام نزعته للمساواة ولإقرارها بين البشر على المستويات كافة، وذلك منذ بواكير التاريخ الإسلامى، حتى إننا نلحظ على مر العصور محاولات عدة لإقرار هذه المساواة اجتماعيًا وسياسيًا.

ولكن هذا لم يمنع وجود آلاف من الأمراء فى شبه الجزيرة العربية يطالبون لأنفسهم بمميزات دون غيرهم من البشر، وذلك بصورة علنية يعرفها الجميع.

كما أن العالم العربى يزخر بمن يطالبون لأنفسهم بحقوق تفوق حقوق غيرهم، استنادًا إلى ثروة أو جاه أو عائلة أو نسب أو محسوبية. ويتبع هذا ضرورة أن نعترف بندرة الدول الإسلامية التى تستطيع أن تدعى أن مواطنيها يشاركون فى عملية الحكم، حتى فى ظل وجود انتخابات ومجالس نيابية.

أما احترام الكبار، والذى يحكم حياة المسلمين، فله محاذيره؛ حيث يمكن أن يؤدى إلى اعتقاد مطلق فى السلطة، وعدم التعرض بالمساءلة أو النقد. وهذا من شأنه أن يؤدى، ليس فقط إلى عدم أهلية المجتمع للممارسة السياسية الحرة والحوار السلمى كوسيلة تغيير، بل أيضًا إلى عجز المجتمع عن تحقيق إنجازات علمية جديدة؛ لأن نقد الذات (أى افتراض الشك فيما هو قائم) هو السبيل للتقدم العلمى.

(*) سبقت ماليزيا بقية دول العالم الإسلامى بريادتها لنظام جزئى للتمويل والاقتصاد الإسلامى، برغم أن المسلمين بها حوالى ٥٥٪ من السكان، ومن يرد الاستزادة يمكنه قراءة كتاب «التجربة الماليزية»، من منشورات مكتبة الشروق الدولية ـ (المترجم).

ولقد تعرضت الحضارة الإسلامية لهذا الخطر، بل دبّ الضعف فى أوصالها فى القرنين ١٤ ، ١٥ الميلاديين، حين تضاءل احترام العلوم، بل اختفى تمامًا الاهتمام بكل ما هو جديد، وتحول احترام الإنجازات العلمية للسابقين إلى مجرد تقليد، وأغلقت الأمة باب التجديد، حتى صارت ممارسة العلوم محصورة فى كتابة المتون والحواشى والفهارس لأعمال السابقين.

لقد أخطأ علماء هذه الحقبة حين اعتقدوا أن الأولين بحثوا فى كل نواحى العلوم الإسلامية، حتى لم يعد أمامهم مجالات بحث، وأن الأولين كانوا بحكم قربهم من المصادر الأولية للإسلام أكثر قدرة على البحث.

وقد أدى هذا الانحطاط الفكرى فى الحضارة الإسلامية إلى الانهيار الاقتصادى والعسكرى وسقوطها ما بين القرنين السابع عشر، والتاسع عشر.

يعتقد غالبية المسلمين أن تخلفهم المادى اليوم ما هو إلا نتيجة للاستعمار الأوروبى، الذى تعرضت له بلادهم إبان فترة الإمبريالية الغربية، ولكننى أرى العكس: فلقد تعرض العالم الإسلامى للاستعمار بسبب حالة الانحطاط[٨] التى كان قد وصل إليها من جراء اتجاه التقليد، الذى استشرى فى العلوم والفكر(*).

ويقرر علم النفس أن تحميل الآخرين مسئولية فشل المرء يُعَدّ من الآليات التى من شأنها إراحة النفس. لكن هذه الآلية قد تحولت فى العالم الإسلامى إلى حالة جنون مبالغ فيها، فكلُّ الكوارث يتم إرجاعها إلى نوع من تآمر الغرب على العالم الإسلامى.

والتفسير التآمرى هذا دائمًا ما يحمل المخابرات الأمريكية، والموساد والمنظمات الصهيونية وعملاءهم، وكذلك الناتو، المسئولية الرئيسية لكلِّ ما يحيق بالأمة الإسلامية من مصائب.

فالبعض يعتقد حقيقة بوجود «خطة رئيسية ـ Master plan»؛ لتدمير الإسلام والعمل على تخريب العالم الإسلامى.

ومما أعطى مصداقية لكلِّ ادعاءات التآمر هذه: فشل حلف شمال الأطلنطى فى وقف النزاع المسلح فى البوسنه فى سنواته الثلاثة الأُول، وإخلاص الولايات المتحدة فى انحيازها

---

(٨) أسد (١٩٨٨).

(*) بدأت أوروبا الغربية فى استباحة الآخر فور قدرتها العسكرية على ذلك من بداية القرن السادس عشر، وقد استعمرت ثلث مساحة العالم على مدى خمسة قرون، ومن ضمن ذلك العالم أمريكا كلها، ومعظم إفريقيا، ومعظم آسيا بما فى ذلك الهند والصين، واستراليا، وغزت الولايات المتحدة أسواق اليابان بقوة بوارجها الحربية بقيادة الكومودور بيرى فى منتصف القرن التاسع عشر ـ (المترجم).

الكامل والدائم لإسرائيل، وبروز يهود كمساعدين رئيسيين للرئيس كلينتون، وموظفين يحتلون مناصب مهمة فى إدارته.

هذا مع أن أيسر وأقرب التفسيرات هو أن الدول تمارس سياسة تخدم مصالحها الخاصة، وأن اختراعات شخص مثل بيل جيتس، تغمر العالم على الرغم من الجميع؛ لأن التكنولوچيا فائقة التطور، كالماء تصب من أعلى إلى أسفل وليس العكس.

وتُعَدّ الحالة النفسية التى سبقت الإشارة إليها ذات ضرر بالغ للمسلمين؛ حيث تمنعهم من التفكير فى نقاط ضعفهم وتشخيص أسباب فشلهم الحقيقية وتحديدها، وبالتالى تشل قدرتهم على المبادرة بإيجاد حلول للخروج من أزمتهم.

هناك ظاهرة أخرى مرتبطة بالاتجاه إلى التقليد ولا تقل عنه ضررًا، وهى الخوف من كلِّ جديد وعدم السماح به. ويظهر هذا أوضح ما يظهر فى مناهج وأساليب التعليم فى العالم الإسلامى؛ حيث يسود فى المدارس ـ خاصة فى المرحلة الأساسية ـ أسلوب التلقين والحفظ والتسميع، بدلًا من التساؤل عن أصول الأشياء وإعمال العقل، حتى صرنا نتحدث عن أمية المتعلمين.

ويميل علماء مسلمون ـ حتى الآن ـ إلى إثبات رأيهم عن طريق الاستشهاد بآراء من لهم مكانة وسلطة، بدلًا من الإتيان ببراهين وحجج توصلوا هم إليها، فيأتى حديثهم غالبًا على النحو الآتى: قال فلان: «....» وقال فلان: «....».

أما السبب الرئيسى لهذه الظاهرة، فهو تضييق مفهوم التجديد وتوسيع مفهوم البدعة فى الإسلام، رغم أنه يحتمل المعنيين الإيجابى والسلبى، فقصره البعض على معناه الثانى ـ السلبى ـ فكلُّ تجديد فى الفكر الإسلامى والممارسات والسلوك يُعَدّ بدعة (بالمعنى السلبى للتجديد) غير مسموح بها. وهكذا انتشرت عقدة «البدعة» التى مكنت البعض من استخدام تهمة «البدعة» كسلاح يشهرونه فى وجه كلِّ من يعارضهم، ويستخدمونه حسب أغراضهم ومصالحهم، ولهذه التهمة عواقبها الوخيمة.

ولقد أدى الخوف من التجديد، ووصم كلِّ ما هو جديد بـ «البدعة» إلى ركود فكرى، وتقوقع على الذات، والانفصال عن التطور التكنولوچى الغربى.

يحث الإسلام المؤمنين على الصبر، فالله مع الصابرين. ولكن هذا لا يسوِّغ ما يمارسه بعض

الموظفين المسلمين فى أماكن عملهم، فهم يجعلون من له طلب عندهم، ينتظر حتى يفرغ من إفطاره أو حتى يفرغ من حديثه التليفونى الخاص المطول.

وإن كان البعد عن الملذات فضيلة يحث عليها الإسلام، إلا أنك لا تجده مُمارسًا بالشكل المفترض فى العالم الإسلامى.

فإذا كان محرمًا على المسلمين تقديم الخمور، فإننى لا أعلم أى شركة طيران تمتنع عن تقديم هذه الخمور، ما عدا شركة الطيران السعودية. وهل من الممكن أن نقضى على الخمور والمخدرات إذا كنا نسمح (كما هو الحال فى دبى) بأن يسكنها غير المسلمين بنسبة تبلغ حوالى ٩٢٪، وهؤلاء من غير المسلمين لهم الحق فى تناول الخمور وفق الشريعة الإسلامية؟ ولن نندهش إذا علمنا أنه فى ظل هذه الظروف، كانت دبى تموج بالساقطات الروسيات.

ويمكنك كذلك أن ترى الإحساس الإسلامى بالوقت من منظور مزدوج. فمن الممكن أن يكون تسويغًا فقط لعدم الدقة فى المواعيد الذى يُتهم به المسلمون، وهو تعبيرعن عدم الاهتمام بالآخرين واحترامهم، كما أنه تبديد للوقت.

ومن الجائز أن تضفى الملابس المحتشمة الوقار على المرأة المسلمة، ومن المؤكد أن المرأة المسلمة تؤدى دورًا رئيسًا فى الأسرة، ولكن هذا لا يعنى أنها تضطلع بالدور المنوط بها فى القرآن والسنة، ولا أنها تتمتع بكل الحقوق التى يمنحها إياها الإسلام. فعلى المرأة فى العالم الإسلامى أن تعمل على تحرير نفسها من منطلق إسلامى. فهذا العالم ظل إلى الآن عالمًا للرجال.

أما التعددية التى يتسم بها الإسلام على المستويات كافة، فهى الأخرى قابلة لأكثر من تفسير. فهذه التعددية ثراء، وعلى الجانب الآخر ضعف. فالدول الإسلامية تعانى من فرقة شديدة، حتى إنها عرفت بها، فغدت إحدى العلامات المميزة لها. هذا بالرغم من نشأة الجامعة العربية سنة ١٩٤٥ وقيام منظمة المؤتمر الإسلامى عام ١٩٦٩ بما تضمه من ٥٦ دولة.

وهذا الاختلاف والتشرذم أصبح علامة مسجلة للمسلمين، حتى فى أوروبا والولايات المتحدة، فأصبحت مهمة أعداء الإسلام يسيرة جدًا.

أما ما يدعو إلى القلق حقيقة، فهو غياب التعددية فى الآراء والمذاهب، والتسامح مع الرأى المخالف، هذه التعددية الفكرية التى عرفت عن الفلاسفة المسلمين فى الأزمنة السابقة.

فالمشهد الإسلامى تحكمه اليوم أقلية من المنظمات الإسلامية السياسية، والتى تتناحر بعضها مع بعض؛ لأن كلًا منها يعتقد أنها وحدها تسير على درب الهدى دون غيرها.

هذه النظرة الضيقة يمكن تسويغها بأن هذه الحركات غالبًا ما تجد نفسها فى صراع مع نظم الحكم القائمة التى تخشى على وجودها. وعلى الشخص الذى يجازف بحياته ويكون على استعداد لتحمل العذاب أو الموت فى سبيل الإسلام، أن يحدد أولًا ويعرف أىَّ إسلام هذا الذى يضحى من أجل إعلاء شأنه. وعلى أىِّ حال لا يشترط أن يكون المرء بالضرورة سلفيًّا إذا ما عاد إلى الأسس الرئيسية للإسلام.

وهناك تفسير آخر للنظرة الضيقة التى تمارس بها الجماعات الإسلامية نشاطها، هو أن قادة هذه الجماعات أكاديميون، ولكن ليسوا علماء دين أو فلسفة، بل معظمهم من خريجى كليات الهندسة والطب والعلوم، الأمر الذى يلفت النظر.

ولقد رصدت ظاهرة أخرى شديدة الارتباط بما سبق ذكره، وهو انبهار بعض الشباب المسلم بشئون هامشية غير ذات أهمية. فاهتمام الشاب ينصب على البحث فى أسئلة، مثل: هل يفسد طلاء الأظافر الوضوء أم لا؟ هل يُعَدّ الشعر المستعار غطاءً مناسبًا للرأس أم لا؟ هل يجوز شرعًا تركيب أسنان ذهبية؟ هل يجوز استخدام مواد التجميل التى تحتوى على مواد كحولية؟ هل يجوز استخدام الشوكة والسكين فى تناول الطعام؟ هل يجوز شرعًا أن يكون المرء أشول؟ هل يجوز إهداء قرآن لغير مسلم؟ هل يجوز مصافحة الجنس الآخر باليد المجردة؟.

هذه أسئلة حقيقية يبعث بها القراء فى العالم العربى الإسلامى إلى علماء الدين للإجابة عنها، ويبذل هؤلاء العلماء جهدًا ملحوظًا للإجابة عنها فعلًا[٩].

إننى أحيى ـ بطبيعة الحال ـ اهتمام هؤلاء الناس وحرصهم على إتيان السلوك القويم والتأكد من صحة تصرفاتهم، ولكنى لا أستطيع أن أتجاهل المخاطر التى تهدد الإسلام من جراء هذه التفصيلات، فإننى أرى خطرًا يلوح أمام عينى، وهو أن يتحول الإسلام إلى تعاليم تلمودية، كما هو الحال فى التعاليم المتشددة للدين اليهودى.

ذلك؛ لأن الإسلام فى جوهره ـ على النقيض من ذلك ـ يهدف إلى تسهيل حياة البشر والتخفيف عنهم وليس تعقيدها والإثقال على المسلمين.

---

(٩) هذه الأسئلة مصدرها الخطاب الدورى الذى تصدره لجنة المسلمين الألمان (محررها عبد الله بوريك). تحذر السنَّة من ضيق الأفق فى التفكير. قال رسول الله ﷺ «هلك المتنطعون» قالها ثلاثًا، [صحيح] مسلم فى (العلم: حديث ٧/ ٢٦٧٠). كذلك جاء «إن الله يحب عظائم الأمور ويكره سفاسفها». [صحيح] رواه الطبرانى فى «الكبير» (٨٢٦).

- ٤ -

بعد سماع الرأيين المتعارضين، تنتابنا نفس الحيرة التى انتابتنا من قبل عندما استعرضنا رأى الطالبين المسلمين فى الغرب، ونقول نفس قولنا السابق: لا نستطيع أن نلوم واحدًا منهما، أو أن نفضل رأيًا على الرأى الآخر بشكل قاطع، فكلٌ منهما له أسس موضوعية، ولكنه يستعرض دائمًا مسائل قابلة لأكثر من تفسير، ثم يحكم على هذه المسائل من وجهة نظر معينة، فالعالم الإسلامى كذلك له وجهان.

إننى أوصى بعد هذا التبادل ـ المتخيل طبعًا ـ للملاحظات ألا ننحاز إلى العالم الإسلامى أو أن نرفضه تمامًا؛ لأننا فى آخر الأمر استطعنا أن نبلور عدة عناصر، تثبت النظرية القديمة القائلة: إن النور ينبعث من الشرق. وسنصل إلى نفس النتيجة إذا ما شبهنا الشرق بعالم الكيف، والغرب بعالم الكم. هذه المقارنة التى قد يبدو فيها الكثير من السطحية، إلا أنها تخفى وراءها الكثير من الحقيقة. فالعلاقات الإنسانية ـ حتى علاقات الحب ـ فى الغرب تحكمها قوانين السوق. فالكلُ سواء فى الدولة أو فى المجال الاقتصادى والثقافى والرياضى، حتى فى العائلة والعلاقات الحميمة بين البشر، الكلُ يبغى تحقيق أقصى درجات الربح الممكنة فى علاقاته، وتحسين الإنتاج عن طريق الرفع من مستوى الفاعلية والكفاءة.

فكلُ ما لا نستطيع ترجمته إلى أرقام لا قيمة له فى الغرب، بل يتحول إلى شيء مبهم، غريب غير منطقى، بل إلى رفاهية.

وفى ظل هذا، يظل الشرق وبخاصة العالم الإسلامى مأوى وملاذًا للروحانيات، لمعرفة الله ولمعايشة المقدسات. ويؤدى ذلك إلى إضفاء قيمة على أشياء ليس لها قيمة مادية فى حقيقة الأمر كالوقت، والهدوء والسكينة، أن تستغرق فى التأمل، أن تجلس فى ظل شجرة، أن تستطيع أن تتناول كوبًا من الشاى أو فنجانًا من القهوة دون استعجال وفى وقته المناسب، مثل قهوة الصباح أو المساء، أن تستمتع بقصيدة ما، أن تستغرق فى حديث عن الله أو مع الله. وإذا كان الأمر هكذا ـ وأنا على يقين من هذا ـ فليس الغرب هو من يستطيع وحده أن يقدم للشرق شيئًا، بل يمكن للشرق كذلك أن يقدم الكثير للغرب، ولكن هناك ما يعيق تحقيق هذا الأمر، وهذا ما سوف نتناوله فى الفصل القادم.

***